

دراسة مقارنة بين روايتين "الحرام" و"العيب" لـيوسف إدريس

الدكتور آصف أحمد كمار

خانيورة بارهمولة، كشمير

asifarabic1986@gmail.com

ملخص

إن شخصية الأديب البارز والمبدع الدكتور يوسف إدريس رحمه الله تعالى، معروفة كل المعرفة في العالم الأدبي الذي نرى حياته في الجهود الغالية لإصلاح المجتمع البشري في القرن العشرين. يوسف إدريس أحد من أشهر الأدباء الذي ترك الطب من أجل الأدب لأنه كان يعشق الأدب منذ صغره فترك مهنة الطب ليدخل عالم الأدب فأصبح من رواد القصة العربية المعاصرة. فهذه المقالة عن هذا الأديب البارز الذي بذل أقصى جهوده في معالجة القضايا الاجتماعية والسياسية، وقام بخدماته الجليلة في تصوير المجتمع بكل جوانبه وأطرافه. ولهذه المقالة أهمية كبرى لأنني قمت فيها بدراسة مقارنة بين روايتيه "الحرام" و"العيب" وتعتبر هاتان الروايتان عن حياة الإنسان تعبيرا صادقا وتمثل لنا صورة حية للمجتمع كما تعبر عن رؤيته الواقعية في الأدب العربي لأنه أثار فيهما قضايا الناس الواقعية ومعاناتهم من الفقر، والجوع، والظلم، والقهر، والاستغلال، والتحرش الجنسي، وغيرها وهي المشكلات التي نجدها في كل إنتاج يوسف إدريس تقريبا وعبر عنها بأسلوب ممتاز.

الكلمات المفتاحية: يوسف إدريس، الرواية العربية، المأساة الاجتماعية، طبقة الفلاحين والعمال الكادحين.

رواية "الحرام" و"العيب" روايتان رائعتان جدا كتبهما يوسف إدريس بأسلوب مميز تعبران عن المأساة الاجتماعية، فهما روايتان متكاملتان تصور إحداهما الجريمة في القرية كما وجدنا في رواية الحرام والأخرى تصور الجريمة في المدينة كما في رواية العيب، وتدور قصة إحداهما حول عزيزة في رواية الحرام، والأخرى يعني العيب تدور حول سناء. نشرت رواية الحرام في عام ١٩٥٩م، هذه الرواية تتحدث عن حياة الترحيلة في الريف المصري وبطلتها فتاة عاملة ريفية "عزيزة" مكافحة وتشقى في سبيل كسب لقمة العيش وقد طحنها الفقر والبؤس، فيحكي لنا يوسف إدريس قصة هذه المرأة بصورة بارعة ومؤثرة، أن الظروف الاجتماعية كيف أجبرتها على ارتكاب الخطيئة والحمل بعدها. وأما رواية العيب فأصدرها المؤلف في عام ١٩٦٢م. والفرق بين هاتين الروايتين هو الفرق بين القرية والمدينة، وبين "عزيزة" و"سناء". لقد غرقت عزيزة في المأساة حتى قضت عليها، أما سناء فقد غيرتها المأساة فحولتها من الطهر والبراءة إلى الرشوة. لقد فقدت عذريتها الأخلاقية في كل شيء، وهذه هي مأساة المدينة. وبمعنى آخر إن المأساة في المدينة أخف وأهون، أما في القرية فهي تسحق وتقتل. فسناء بطلة رواية العيب تكاد تكون كإنسان عادي في المجتمع فهي متعلمة، قادرة على تبرير وتفسير أخطاءها. أما عزيزة فهي غير قادرة على التبرير وشعورها بالذنب كان خطيرا فغرقت فيه حتى أذنبها. فالناس في الريف بسطاء ليس لديهم قدرة على خداع أنفسهم أو خداع الآخرين، والناس في المدينة مشغولون عن بعضهم البعض، ولكن مجتمع القرية مجتمع يرى كل شيء ويحكم على كل شيء.

بعد دراسة رواية "الحرام" نجد أن المؤلف يصور فيها معاناة وآلام الطبقة العاملة من الفلاحين الفقراء وتدور حول شخصية رئيسية اسمها عزيزة التي كانت تذهب للعمل إلى الأماكن البعيدة مع الرجال. وكان معظم الناس فقرا، وهذه الطبقة تضطر للترحال وراء لقمة العيش ويتركون منازلهم ويذهبون للعمل إلى الأماكن البعيدة، كما صورهم المؤلف تصويرا دقيقا واقعيا أنهم أكثر الناس فقرا في بلادهم الذي يدفعهم إلى اللجوء إلى العمل في الأماكن البعيدة بسبب الفقر، وترك دورهم

وقراهم سعيا وراء يومية لا تتعدى القروش القليلة، وهم ذوي أسمال البالية، والرائحة الغريبة، والخلفة الكريمة^١، ويقول عنهم في موضع آخر "نفاية بشرية جائعة مضطرة إلى الهجرة كي تعمل وتأكل وتنال حظا من الحياة"^٢.

كانت عزيزة إحدى عاملات الترحيلة تعمل مع العمال الزراعيين الذين ينقلون للعمل إلى المناطق المختلفة بعيدا عن سكانهم، تزوجت عزيزة من رجل فقير من عامل الترحيلة اسمه عبد الله، وكانت تشارك معه في كل عمل وخاصة العمل ضمن عمال الترحيل في الريف المصري، وبعدها مرض زوجها وأصبح عاطلا عن العمل، فيقع على زوجته كل العبء والمسئولية لكي تزود أسرته بالطعام، وابتعدت عنه حتى أنها امتنعت عن أي نوع من العلاقة الجسدية بسبب مرضه، فعاشت هذه المرأة حياتها الزوجية في الفقر والجوع تحت قهر المجتمع الاستغلالي. وفي يوم من الأيام اشتد مرض عبد الله ويتمنى أن يأكل بطاطة كأنها كانت الأمنية الأخيرة في حياته، فطلب من عزيزة أن تأتي له بالبطاطة ويقول "نفسى في البطاطة يا عزيزة... وقالت له عزيزة يا حبيبي من عيني دي ومن عيني دي"^٣. فخرجت زوجته للحصول على البطاطة، ولكن البطاطة ما كانت في البلد، بل كانت هناك مزرعة البطاطة الوحيدة وهي في أرض قمرين، وأخذت تحفر بالفأس ولم تجد أي شيء، ثم انتقلت من مكان إلى مكان ولكنها لم تجد جذور بطاطة حتى سمعت صوتا وهو ابن قمرين يسألها عما تفعل فرفعت عزيزة رأسها وقالت له الحكاية وبعد سماع حكاية زوجها المريض لا يسمح لها حفرة الأرض التي يضعفها بل خلع جلبابه ويساعدها في البحث عن البطاطة، وخلالها سقطت عزيزة في الحفرة التي كانت وراءها وحاولت أن تخرج منها ولكن لم تنجح حتى اغتصبها فيها صاحب الأرض ابن القمرين ولم تقاومه وهكذا أصبحت عزيزة ضحية، وبعدها حملت عزيزة وولدت ثم قتلت ابنها وتركته على خليج العزبة خائفة من الناس لأنه لم يحدث علاقة الجسدية بزوجها منذ أيام مرضه.

وكذلك بعد دراسة رواية "العيب" نجد أنها تعالج عدة مظاهر لحياة بطلة رئيسية "سنا" ومنها قبولها الرشوة التي كانت بداية السقوط لها، وقبولها الرشوة أدى إلى استسلامها جسديا لمحمد الجندي. وكذلك نجد بين الجندي وبين سنا الصراع منذ عينت موظفة في تلك الإدارة التي كان فيها محمد الجندي موظفا. وهذا الصراع بينهما أحدث التغيير فيهما معا، فسنا لم تحتفظ بكرامتها وقبل الرشوة، وأما الجندي فهو على العكس شخصا فاضلا ومتغيرا أخلاقا وبدأ يحب سنا حتى كان يتحدى عبادة بك أن ينجح في إقناعها على الرشوة. ولذا هو الشخص الوحيد من زملائه وجدناه حزينا بعد أن ارتشت سنا لأنه لم يتوقع هذا من سنا، كما أوضح المؤلف سبب حزنه قائلا "أخبرها أنها كادت منذ ذلك اليوم الذي ألقته عليه فيه خطاها الطويل أن تنجح في تغيير مجرى حياته كله وفي إنقاذه... وأنه من يومها أصبحت له مثل والبطلة، ومن شدة ثقته بها تحدى عبادة أن يوقعها... وكان واثقا تماما من فشل عبادة ونجاحها"^٤ وأما سنا فلا نتوقع منها أن تسقط هكذا في النهاية خلقا ثم جسديا أو من الأخلاق الفضيلة إلى الأخلاق الرذيلة فتغيرت تماما وأصبحت مثلهم، كما يصفها المؤلف "لو عزم أحدهم على سنا بسيجارة... قبلتها وأشعلتها ومضت تجرب باضطراب المبتدئة كيف تمسكها وتجذب أنفاسها وتتفادى

١ . يوسف إدريس، الحرام، مكتبة مصر القاهرة، ص ١٤

٢ . المصدر السابق، ص ١٤

٣ . المصدر السابق، ص ٨٦

٤ . يوسف إدريس، العيب، مكتبة مصر القاهرة، ص ١٤٥

يريد الكاتب أن يظهر أمامنا في هاتين الروايتين الشهيرتين نقطة ضعف المرأة في ظروفها الاجتماعية، التي حاولت أن تتغلب على ضعفها وقسوة الحياة عليهما، لأنهما ما كانت مثل النساء التي تعيش حياتهن حياة طبيعية فوق علمهما كل العيب والمسئولية. فكل بني آدم خطأ، والشخص يخطئ بطريقة أو أخرى وكذلك سناء في رواية العيب استسلمت نفسها لزملائها بسبب أزمة مالية لديها وانزلت تدريجيا إلى الرشوة ثم سقطت بعدها جسديا لأحد زملائها.

حاول يوسف إدريس في رواية "الحرام" أن يقدم أمامنا صورة الطبقة الكادحة من العمال والفلاحين الفقراء في المجتمع المصري ومعاناتهم من أجل حصول لقمة العيش لأولادهم، وكذلك تصور الرواية حياة الجهل والفقر والبطالة والمرض التي سيطرت على هذه الطبقة، كما تصور الرواية أيضا الصراع بين هذه الطبقة وبين الطبقات الأخرى من الإقطاعيين والأمراء والموظفين الذين يمتلكون القدرة على الإنتاج والوسائل الأساسية ويتحكم في هذه الطبقة السفلى في الريف المصري. فيوجد في هذه الرواية الصراع بين الطبقات أو بين من يملكون كل شيء ومن لا يملكون شيئا، كما حاول المؤلف في رواية "العيب" أن يقدم أمامنا الضغوط والتحديات التي تواجه النساء العاملات من بين الرجال في المجتمع الفاسد. ويكشف فيها المؤلف الرجال الذين يحرضون النساء ويجبرونهن على ارتكاب الجريمة في الإدارات الحكومية. فوجدنا أن هذه الرواية تلقي ضوء على قضية الفساد الشائع في الأوساط الاجتماعية المختلفة.

لقد صور يوسف إدريس في هاتين الروايتين معاناة الطبقة السفلى التي تعيش حياتها في القسوة وتجبر على ارتكاب الجريمة وتموت من أجل لقمة العيش. كما صور في بعض أعماله ظلم واستغلال الإقطاعيين على الفلاحين الفقراء. وساعدته الفترة التي قضاها مع أبيه حيث كان أبوه يعمل في استصلاح الأراضي على كتابة مثل هذه الروايات ومهدت له الطريق لتعبير عن هذه الطبقة، كما ظهرت في هذه الفترة الأعمال العديدة التي تناولت أحوال المجتمع الريفي ومظالم الطبقة الوسطى والإقطاعيين للفلاح المصري. فإننا نجد قبل رواية "الحرام" و"العيب" بعض روايات عربية تناولت حياة الفلاح المصري ومظالم الإقطاعيين وطغيانهم عليهم مثل رواية "زينب" لهيكل أو "الأرض" و"الفلاح" لعبد الرحمن الشرقاوي وغيرها ولكن رواية "الحرام" و"العيب" تتميزان من هذه الروايات بتركيزها على حياة الطبقة العاملة وخاصة المرأة العاملة من الشعب المصري في ذلك الوقت، وعن ذلك يقول يوسف إدريس:

"عندما خرجت من قريتي إلى المدينة وجدت أن العالم يتحدث عن القرية المصرية وكأن الفلاحين جنس واحد.

ولكني اكتشفت أن الفلاحين يشكلون طبقات، مثل اكتشاف أن الشيء يتكون من الجزئيات، تتكون من ذرات

والذرات من جسيمات صغيرة، وقد كنت وقتها أومن بالطبقات الكادحة من الناس"^٦.

نجد في هاتين الروايتين شخصيات متنوعة التي تربط بعضها ببعض ولها طباعها وأثرها في تنمية الرواية، والشخصية الرئيسية التي ركز عليها المؤلف تركيزا خاصا في رواية العيب هي سناء الفتاة الجميلة والموظفة في الإدارة الحكومية تخرجت من كلية التجارة. وكذلك نجد في هذه الرواية الشخصيات الثانوية التي لها دور هام في هذه الرواية ومنها محمد الجندي الشخصية المنفردة وزميل سناء في المصلحة. وأما رواية "الحرام" فهي تتركز حول الشخصية الرئيسية "عزيزة" التي عانت من الفقر والبؤس بعد مرض زوجها وسقطت بين يدي محمد بن قمرين عندما كانت تبحث عن البطاطا في الأرض، ثم حملت

^٥ . المصدر السابق، ص ١٤٦

^٦ . شوقي بدر يوسف، الرواية ... التأثير والتأثر دراسات تطبيقية، ص ٨٥-٨٦

وولدت فقتلت ابنها خوفا من الناس لأن زوجها والأخرى يعلمون أن علاقتها الجسدية بزوجها مقطوعة منذ أيام مرضه منذ فترة طويلة. فالشخصية الرئيسية في رواية الحرام هي التي تحمل الفكرة والمضمون الذي يريده الكاتب نقله إلى قارئه. ويقدم الكاتب شخصية عزيزة بقوله:

"لم تكن عزيزة بارعة الجمال ولم تكن حتى جميلة. كانت طويلة رفيعة ذات أنف طويل رفيع ورقعة سوداء تعصب رأسها على الدوام، ووجه أصفر وعينين واسعتين على إحداها نقطة بيضاء من رمد قديم ... كانت هكذا إلى أن زوجها إلى عبد الله"^٧.

خاتمة

ويمكن القول إن يوسف إدريس في هاتين الروايتين أثار موضوعا هاما وكشف عن تحديات الخطيرة سواء أكان في القرية أو في المدينة من المجتمع المصري مثل الشك والافتراءات، والنفاق، والرشوة، والسلطة الذكورية، والتحرش الجنسي، والفقر، هذه الأمراض تهدم أساس المجتمع وتدمر العلاقات الأخوية والودية بين الناس. فرأينا في رواية الحرام عندما عجز أفندي عن اكتشاف الجريمة بدأ يشك في نساءهم مرة ثانية، حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة من الشك على الرغم من أنه يعلم أن نساءهم لم يرتكبن تلك الجريمة كما يشير إليها المؤلف بقوله: "بدأت الافتراءات والشكوك تهال من كل صوب، حتى لم تسلم واحدة من نساء العزبة الكبيرة من الشك في أمرها مع علمهم التام أنهم جميعا بريئات"^٨. وكذلك ناقش داء النفاق في رواية الحرام حيث تعبر عن حقيقة الناس تجاه الفلاحين العمال الفقراء. فالحادثة التي حدثت مع يمكن تبريرها في ظل الظروف القاسية التي كانت تمر بها ولكن الطبقة العليا تشجع وترفع هذه المسألة إلى حد كأن الفلاحين كلهم خاطئون وهم أبرياء. وكذلك تصور رواية "العيب" المرض الخطير وهو الرشوة حيث تعبر هذه الرواية عن هذا الفساد في الإدارة الحكومية من المنظور الداخلي والواقع العملي خلال بطلها "سنا" التي كانت موظفة جديدة عينت كاتبة في الإدارة الحكومية لإصدار التراخيص، وبعد فترة تبين لها أن زملائها يتقاضون الرشوة، بأثمان حددتها تقاليد وورثها الموظفون جيلا بعد جيل.

"إن يوسف إدريس ليس أول من كتب عن الفلاحين في بلادنا، وليس أول من كتب عن القرية ولكن قيمته الحقيقية هو أنه عندما كتب عن القرية قلب تربتها وعرف باطنها قبل ظاهرها فخرجت في أدبه قرية مصرية "بحق وحقيق" آلامها الكثيرة هي آلام قرينتنا وأفراحها القليلة وهي أفراح قرينتنا ولكي ندرك الفارق بين القرية الحقيقية التي صورها يوسف إدريس وبين القرية المستعارة المرسومة من الذاكرة، يكفي أن نتذكر ما كتبه الدكتور محمد حسين هيكل في روايته زينب. إن هذه الرواية هي أول عمل فني في أدبنا يتحدث عن الفلاحين ولكنك تجد فيها أشياء غريبة عنا، أشياء تلبس القبعة ولا تلبس الطاقية أو المنديل المحلاوي ذا الألوان الفاقعة الملفوف على الرأس ففي قصة زينب تظهر فكرة الخطيئة التي يتحدث عنها يوسف إدريس في قصته الحرام"^٩.

وهكذا وجدنا أن يوسف إدريس كان يتعاطف مع الطبقات المختلفة وخاصة الطبقة العاملة المطحونة من العمال الفقراء، كما تناول في هاتين الروايتين الصراع بين الطبقات المختلفة من أجل كسب لقمة العيش. فهو أديب بارع مخلص

^٧ . يوسف إدريس، الحرام، مكتبة مصر القاهرة، ص ٨٣-٨٤

^٨ . المصدر السابق، ص ٣٩

^٩ . رجاء النقاش، أدباء ومواقف، المكتبة العصرية ببيروت، ص ٢١٠

صور طبقات المجتمع البشري تصويرا صادقا كما صور المعاناة والآلام أفرادها وما يتصل بها من سقوط اجتماعي سواء أكان في القرية أم في المدينة، كأنه ينظر إلى المجتمع كطبيب ماهر يفحص المريض ثم يشخص مرضه بالعلاج المناسب. ولهذا تعتبر رواياته أفضل الروايات العربية التي تعبر عن الصورة الحقيقية الواقعية للشعب المصري، وتناولت جميع أحوالهم من الظلم والمعاناة والقهر والاستغلال.

المصادر والمراجع

١. أبو عوف، عبد الرحمن: يوسف إدريس وعالمه في القصة القصيرة والرواية، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩م.
٢. إدريس، يوسف: الحرام، مكتبة مصر القاهرة، (بدون سنة الطباعة).
٣. إدريس، يوسف: العيب، مكتبة مصر القاهرة، (بدون سنة الطباعة).
٤. بقلم كبار الادباء: د. يوسف إدريس، مكتبة مصر، القاهرة.
٥. شكري، غالي: يوسف إدريس ... فرفور خارج السور، دار ومطابع المستقبل بالفجالة والإسكندرية، ط أولى ١٩٩١م وثانية ١٩٩٤م.
٦. شويك، ب. م. كبر: الإبداع القصصي عند يوسف إدريس، ترجمة وتقديم: رفعت سلام، دار شهدي للنشر القاهرة.
٧. طه بدر، عبد المحسن: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر (١٨٧٠-١٩٣٨م)، دار المعارف القاهرة، ط ٥، ١٩٩٢م.
٨. عبد المعطي، فاروق: يوسف إدريس بين القصة القصيرة والإبداع الأدبي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٤م.
٩. فؤاد، أحمد محمد: يوسف إدريس والنقاد: دراسة في نقد الإبداع القصصي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط ١، يناير ٢٠١٠م.
١٠. محمد، محمود سعيد: لغة الجسد في الأدب: يوسف إدريس نموذجا، مصر العربية للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م.
١١. النقاش، رجاء: أدباء ومواقف، المكتبة العصرية بيروت.
١٢. الورقي، السعيد: مفهوم الواقعية في القصة القصيرة عند يوسف إدريس، دار المعرفة الجامعية، الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
